﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [العصر: 1 - 3]

❁ مُناسَبَةُ السّورَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا نعى الله سبحانه على عباده في سورة التَّكاثر اشتغالَهم بزخارف الدُّنيا وتطاحُنَهُم على حُطامِها، حتى باغتَهُم الموت، وهم في غمرةِ الازدهاء والافتخار؛ جاءت بعدها سورةُ العصر؛ لتكون تِرياقَ الغفلة ودواءَ الاغترار، ففيها التَّذكرة بأنَّ الزَّمن رأس مال الإنسان، وأنَّ الخاسر مَن أضاعه في لهْوِ التَّكاثر، والفائز مَن عمَّره بالإيمان والعمل الصّالح والتَّواصي بالحقِّ وبالصَّبر؛ فجاءت سورة العصر؛ جوابًا عن التَّكاثر، وهدايةً بعد التِّيه، ففي التَّكاثر ذِكرُ مَن أضاعوا الأوقاتَ في العَدِّ والتَّفاخر، وفي العصر بيانُ مَن أنقذوا أوقاتَهم بالإيمانِ والتَّواصي والتَّطاهر[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾: أصل (عصر) يدلُّ على أمور ثلاثة، فالأوَّل: دهر وحين، والثّاني: ضغط شيء حتَّى يتحلَّب، والثّالث: تعلُّق بشيء وامتساكٌ به[2]، والعَصْرُ: مصدرُ عَصَرْتُ، والمَعْصورُ: الشَّيءُ العَصيرُ، والعُصارة: ما تحلَّب مِن شَيْءٍ تَعْصِره، والعَصَرُ: الملجأ، والعَصْرُ والعِصْرُ: الدَّهرُ، والجميع: العُصور، والعَصْرُ: العشيُّ، ومنه: صلاة العَصْرِ، وإذا قيل: العَصْرانِ؛ فالمرادُ: الغداة والعشيُّ[3]، والعَصْرانِ أيضًا: اللَّيل والنَّهار[4]، والعَصْر: ما يَلي المغربَ مِن النَّهار، وصَلاة العَصْر: الصَّلاة الوُسْطى؛ وذَلِكَ لأنَّها بَين صَلاتي النَّهار وصلاتي اللَّيْل، والعصر: الحَبْس، وسُمّيت عَصْرًا؛ لأنَّها تعصَر، أي: تُحْبَس عَن الأولى، واعتَصَرْتُ بفلان، وتَعَصَّرْتُ، أي: التجأت إليه[5]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾، قال ابن عباس: والدَّهرِ[6].

---

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 376، وعبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 16/ 1667، والزحيليُّ، التَّفسير المنير: 30/ 390، ومجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 10/ 2009.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عصر).

(3) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (عصر).

(4) الجوهريُّ، الصِّحاح: (عصر).

(5) الجوهريُّ، الصِّحاح: (عصر).

(6) البغويُّ، معالم التنزيل: 8/ 522.

2) ﴿خُسۡرٍ﴾: أصل (خسر) يدور حولَ معنى نقصِ الشَّيء بذَهابِ أجزاءٍ منهُ[1]، والخسر والخسران: النَّقص، يقال: خَسِر يخسَرُ خُسرًا وخسرانًا، أي: نقص، ويقال: كِلْتُه ووَزَنْتُه، فخسرته وأخسرته، أي: نقصتُه، وأنقصتُه، ويُستعمل الخُسران "في المقتنيات النَّفسيَّة كالصِّحَّة والسَّلامة، والعقل والإيمان، والثَّواب، وهو الذي جعله الله تعالى الخسرانَ المبين"[2]، وخسر وخسرانًا وخسارة وخسارًا، فهو خاسر وخَسِرٌ، كلُّه بمعنى: ضلَّ، ومنه قول الله ﷻ: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾ [الحجّ: 11][3]، وأمّا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾؛ فالمعنى: لفي عقوبة بذنوبه، وأن يخسر أهله ومنزلَهُ في الجنَّة[4].

3) ﴿وَتَوَاصَوۡاْ﴾: أصل (وصي) يدلُّ على وصلِ شيء بشيء، وصَيْتُ الشَّيءَ ووصَلْتُه سَواء، ويُقال: وصَى الشَّيْءُ يصي؛ إذا اتَّصَلَ، ووَصاه غيرُه يَصيه: وصَله، و"وَصيٌّ بيّنُ الوَصاية، والفعْل: أوْصَيتُ، ووَصَّيتُ إيصاءً وتوصيةً، والوصيَّة: ما أوْصَيْتَ بهِ، وسُمّيتْ وصيةً؛ لاتّصالها بأمْر الميّت"[5]، الوَصيَّةُ: التَّقدُّمُ إلى الآخر بما يعمل به مقترنًا بوعظ، مِن قولهم: أرض واصيَةٌ: متَّصلة النَّبات، ويقال: أوْصاهُ ووَصّاهُ، ووَصَّى: أنشأ فضْلَهُ، وتَواصَى القومُ؛ إذا أوْصَى بعضُهم إلى بعضٍ، قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[6]، وهذا "بيانٌ لتكميلِهم غيرِهم، أي: وصَّى بعضُهم بعضًا بالأمرِ الثّابتِ الذي لا سبيلَ إلى إنكارِه، ولا زوالَ في الدّارين لمحاسنِ آثارِه، وهو الخيرُ كُلُّه مِن الإيمانِ باللّه ﷻ، واتّباعِ كُتُبِه ورسلِه في كُلِّ عقدٍ وعمل"[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أقسم الحقُّ ﷻ في مفتتح هذه السّورة الكريمة بالزَّمان؛ لكثرة ما انطوى عليه مِن عجائبَ وعِبَرٍ، وللدَّلالة على أهمّيَّته وضرورة الحرص عليه، ولتأكيد المقسَم عليه وهو

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خسر).
(2) الرّاغب، المفردات: (خسر).
(3) الجوهريُّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيديُّ، تاج العروس: (خسر).
(4) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (خسر).
(5) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (وصي)، والجوهريُّ، الصِّحاح: (وصى).
(6) الرّاغب، المفردات: (وصى).
(7) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 197.

عـمـوم جنس الإنسان في نوع مِـن الخسران، إلّا مَنْ صدق في إيمانه بالواحد الدَّيّان

أنَّ جنس الإنسان في نوع مِن الهلاك والنُّقصان مِن حيث تضييع الأزمان في اتِّباع الأهواء والشَّهوات وخُطا الشَّيطان، باستثناء هؤلاء المؤمنين الذين صدَّقوا بقلوبهم، واجتهدوا في عمل الأعمال الصّالحات بجوارحهم، فقضوا أعمارهم في التَّوحيد والتَّصديق والإيمان بالواحد الدَّيّان، والتَّواصي فيما بينهم بأداء الطّاعات وترك المحرَّمات، وبالصَّبر كذلك على المصائب والأقدار ابتغاءَ العَفْوِ والمغفرة مِن العزيز الغفّار، ودخول الجنَّة مع عباده الأبرارِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة القسَم وغرضه:

تـأكـيـدٌ وتنبيه، وإرشادٌ وتوجيه

في قول الله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ أسلوبُ قسَمٍ، وهو مِنْ طرقُ توكيدِ الأخبارِ، كما هو شأن أيمان القرآن الكريم، والمقسَمُ بهِ مظهَرٌ من مظاهِرِ الإبداع الإلهيِّ الدّالِّ على عظَمَةِ القُدرة الرّبانيَّة وسَعَةِ علْمِهِ سُبحانَهُ[2].

وأقسمَ الله ﷻ - وهو سُبحانه غَنيٌّ عن القسَمِ - تنبيهًا للعبادِ إلى أهميَّةِ شأن المقسَمِ بهِ، وأهمّيَّةِ جوابِ القسَمِ[3].

براعة الاستفتاح بالقسم:

صـرفُ الـذِّهـن الـرَّشـيـد لتدبُّر مضمون القسَم الأكيد

افتُتِحت السّورة الكريمة بالقسَمِ؛ لتنفتح النَّفسُ باهتمامٍ لمعرفة المقسَم عليه، وأوردَ الكلامُ بأسلوبِ القسَمِ؛ تأكيدًا للمقسَمِ عليهِ، وهو كونُ جنسِ الإنسانِ في خسرانٍ[4]، وفي هذا تهديدٌ شديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ؛ وذلك لأنَّ الله تَعالى حَكَم بالخُسرانِ على النّاسِ كُلِّهم، إلّا مَنِ اتَّصفَ بالأوصافِ الأربعةِ: الإيمان، والعمل الصّالح، والتَّواصي

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 456 - 457، والمجلس الأعلى للشُّؤون الإسلاميَّة، تفسير المنتخب، ص: 926.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 528.
(3) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 490.
(4) طنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 501.

بالحقِّ، والتَّواصي بالصَّبر، فأفاد هذا أن النَّجاةَ لا تحصُل إلّا بمجموعِ الأمور الأربعةِ، "وإنَّه كما يَلزم المكلَّفَ تحصيلُ ما يخصُّ نفسَه؛ فكذلك يَلزمُه في غيره أمورٌ، منها: الدُّعاء إلى الدِّين، والنَّصيحة، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، وأن يحبَّ له ما يحبُّ لنفسه"[1].

فالحاصل أنَّ في الاستفتاح بالقسَم توكيدًا للخبر، وتشويقًا لمعرفة المقسَم به والمقسَم عليه، ودعوةً للتَّفكُّر والاهتمام بمضمون القسَم، وأنَّه ممّا ينبغي التَّنبُّه له.

نكتة القسَم بالعصْر:

أقسمَ اللّه ﷻ بالعصر، وهو الدَّهر؛ لِما فيه مِن التَّنبيه بتصرُّف الأحوال وتبدُّلها، وما فيها مِن الدَّلالة على الخالقِ ﷻ[2]، ولأنَّ فيه عِبرةً للنّاظر مِن مرور اللَّيل والنَّهار على تقديرٍ لا يَنخرِم[3]، ولِما في مرور هذا الدَّهر مِن أصناف العجائب[4]، ولأنَّ فيه خواتيم الأعمال[5].

تذكير بما بقي مِن الزَّمان؛ ليُنجي الإنسانُ نفسَه مِن الخُسران

فلو أنَّ العَبْدَ أضاعَ سنينَ طويلةً مِن حياتِه، ثمَّ تابَ في آخرِ عُمُرِه؛ فإنَّه يبقى في الجِنانِ، ويخلُدُ فيها أبدًا، فدلَّ ذلك على أنَّ "أشرفَ الأشياء حياتُك في تلك اللَّمحة، فكأنَّ الدَّهر والزَّمان مِن جملة أصول النِّعم؛ فلذلك أقسم به، ونبَّه على أنَّ اللَّيل والنَّهار فرصة يضيِّعها المكلَّف، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ٦٢﴾ [الفرقان: 62]"[6].

وخُصِّصَ القسَمُ به؛ للتَّنبيه على أنَّ الإنسانَ يَنْسِبُ المكروهاتِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 282.
(2) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 179.
(3) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 522، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 478.
(4) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 794.
(5) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 333.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 277.

والمصائبَ إليه، فكان إقسامُ اللّه سُبحانَهُ به دليلَ شرَفِهِ وعظيمِ منزلَتِه، وأنَّ الشَّقاءَ والخسرانَ لَزِما العَبْدَ لخللٍ فيه هوَ لا في الدَّهر[1]، ولذا جاءَ في الحديثِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ: «لا تَسُبّوا الدَّهْرَ؛ فإنَّ اللّه هوَ الدَّهْرُ»[2].

وأمّا تخصيص العصر بالقسَم هاهنا دون سائر أجزاء الزَّمان؛ فلأنَّ أشهر إطلاقٍ لِلَفْظِ العصر أنَّه عَلَمٌ بالغَلَبَة لوقتٍ ما، بين آخر وقت الظُّهر وبين اصفرار الشَّمس، فمبدؤه إذا صار ظِلُّ الجسمِ مِثلَه، بعد القَدْرِ الذي كان عليه عند زوال الشَّمس - وهو المسمّى: فيءَ الزّوالِ - ويمتدُّ إلى أن يصيرَ ظِلُّ الجسمِ مِثلَي قَدْرِه بعد الظِّلِّ الذي كان له عند زوال الشَّمس، وذلك وقت اصفرار الشَّمس، والعصرُ مبدأ العشيِّ، ويعقبه الأصيلُ والاحمرار، وهو ما قبل غروب الشَّمس، فذلك وقت يُؤْذِن بقرب انتهاء النَّهار، وفيه إيماءٌ إلى التَّذكير بمثل الحياة حين تدنو آجالُ النّاس بعد مُضيِّ أطوارِ الشَّباب والاكتهال والهرم، وهذه المعاني لا يفي باحتمالها غير لفظ العصر[3].

ومِنْ حِكَمِ عَدَمِ التَّنصيص على لفظِ (الدَّهر) عِلْمُهُ سُبحانَهُ بأنَّ الملحدَ مولَعٌ بذِكْرِ الدَّهر وتعظيمِه، ومِن ذلك ذكره في: ﴿هَلۡ أَتَىٰ﴾ [الإنسان: 1]؛ ردًّا على بطلانِ قولِ الملحدينَ بالطَّبع والدَّهر[4].

معنى تعريف لفظ (العَصْرِ):

للعلماء أقوال متعدِّدة في المقصود بالعصر هنا[5]:

في الدَّهر مِن العِبَر، مِن جهة مرور اللَّيل والنَّهار، على تقدير الأدوار

(1) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 6/ 558.

(2) الحديث متَّفق عليه، أخرجه الإمام البخاريُّ في صحيحه، كتاب: الأدب، باب: لا تسبّوا الدَّهر، برقم: (6182)، وأخرجه الإمامُ مسلمٌ في صحيحه - واللَّفظ له - في كتاب: الألفاظ مِن الأدب وغيرها، باب: النَّهي عن سبِّ الدَّهر، برقم: (2246)، كلاهما عن الصَّحابيّ الجليل أبي هريرة ﷺ.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 530.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 277.

(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 589، والماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 333، والزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 793، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 197، وابن جزيٍّ، التَّسهيل: 2/ 511، والخازن، لباب التَّأويل: 4/ 466.

فمنهم مَن يرى أنَّ المقصود به الدَّهرُ كلُّه؛ لِما فيه مِن العِبَر التي تدلُّ دلالة واضحة على عظيم قدرة الله تعالى، ولِما فيه مِن الأحداث التي يراها النّاس بأعينهم، ويعرفونها عن غيرهم، فهم يرون، ويسمعون كم مِن غنيٍّ قد صار فقيرًا، وقويٍّ قد صار ضعيفًا، ومسرور قد أصبح حزينًا، ورحم الله القائل:

أشابَ الصَّغيرَ وأفْنَى الكَبيـ *** ـرَ كَرُّ الغَداةِ ومَرُّ العَشيّ[1]

ومنهم مَن يرى أنَّ المقصود به: وقتُ صلاة العصر، فقالوا: أقسم سبحانه بصلاة العصر لفضلها، بدليل قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ [البقرة: 238] وهي صلاة العصر، وقوله ﷺ: «مَنْ فاتَتْهُ صَلاةُ العَصْرِ؛ فكَأنَّما وُتِرَ أهْلَهُ ومالَهُ»[2]، ولأنَّ التَّكليف في أدائها أشقُّ؛ لتهافُت النّاس في تجاراتهم ومكاسبهم آخرَ النَّهار، واشتغالهم بمعايشهم.

ومنهم مَن يرى أنَّ المراد بالعصر هنا: عصرُ النُّبوَّة؛ لأفضليَّته بالنِّسبة لِما سبقه مِن عصور[3]، "فهو تعالى أقسَمَ بزمانه في هذه الآية، وبمكانه في قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢﴾ [البلد: 2]، وبعُمره في قوله تعالى: ﴿لَعَمۡرُكَ﴾ [الحجر: 72]"[4]، وكلُّ هذا تعظيمٌ لقدر النَّبيِّ ﷺ وتشريفٌ لَهُ، والمبالغَةُ في توبيخ مَنْ لم يوقِّره، ويُبجِّلْهُ حقَّ التَّوقير والتَّبجيل[5].

ومنهم مَن يرى أنَّ العصر "هو آخِر النَّهار، أقسَم الله به، كما أقسم بالفجر والضُّحى؛ لأنَّ آخِر النَّهار يشبه تخريب العالَم وإماتة الأحياء، كما أنَّ أوَّل النَّهار يشبه بعث الأموات وعمارة العالَم، فعند ذلك إقامةُ الأسواق، ونصبُ الموازين، ووضعُ المعاملات، وفيه إشارة إلى أنَّ عُمُر الدُّنيا ما بقي إلّا بقدر ما بين العصر إلى المغرب، فعلى الإنسان أن يشتغل بتجارةٍ لا خُسران فيها، فإنَّ الوقت قد ضاق، وقد لا يمكن تدارك ما فات"[6].

---

(1) البيت للصَّلَتان العبديِّ من قصيدةٍ مطلعها: "أرى أمةً شهرت سيفَها"، يُنظر: شريف علاونه، شعر الصَّلتان العبديّ، ص: 80.

(2) الحديث متَّفق عليه، أخرجه الإمام البخاريُّ في صحيحه، كتاب: مواقيت الصَّلاة، باب: إثمُ مَن فاتته صلاة العصر، برقم: (552)، عن عبد الله بن عمر ﷺ، وأخرجه الإمام مسلم عنه أيضًا في صحيحه، كتاب: المساجد ومواضع الصَّلاة، باب: التَّغليظ في تفويت العصر، برقم: (626)، واللَّفظ له.

(3) طنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 500.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 279.

(5) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 6/ 559.

(6) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 6/ 559.

وبناء على ما سبق فتعريفُه على الوجه الأوَّل والأخير تعريفُ جِنْسٍ، أي: كلِّ عصرٍ، وتعريفه على الوجه الثّاني تعريفُ العهدِ العلميِّ، وصار عَلَمًا بالغلَبة، كما هو شأن كثير مِن أسماء الأجناس المعرَّفة باللّام مثل (العَقَبة).

والتَّعريف على الوجه الثّالث تعريفُ العهد الحضوريّ، مثل التَّعريف في (اليوم) مِن قولهم: فعلتُ اليومَ كذا[1].

والتَّعريف يجعله صالحًا لأنْ يُراد به ذلك كلُّه، "فيدخل فيه كلُّ ما يُسَمَّى بالعصر؛ لأنَّه لم يقع اختصاصٌ تقوم به حُجَّةٌ، فالعصر: الدَّهر، والعصر: العشيُّ، والعصر: الملجأ"[2].

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ عن سابقه:

فُصِل قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه جوابُ قسَم، ومِن شأن القسَم أن يُثير في النَّفس سؤالًا عن جوابه، فبينهما شِبْهُ كمالِ الاتّصال، أو ما يُعرف بالاستئناف البيانيّ، وهو مِن مواطن الفصل بين الجُمَل، وفائدته هنا تشويق السّامع لمعرفة جواب القسَم، فإذا ما سَمِعه؛ تمكَّن مِن نفسه تمام التَّمكُّن.

مِن شأن الاستئناف البيانيّ أن يُفصَل عن سابقه، ويُمهِّد للاحِقِه

مناسبة جواب القسَم للمقسَم به:

أقسم اللّه تبارك اسمُه بالعصر - وهو الدَّهر أو جزء منه - على أنَّ جنس الإنسان في خسران، وهذا الجواب مناسب تمام المناسبة للقسَم مِن حيث كون رأس مال الإنسان الحقيقيّ هو عمرَه، فإنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾، أي: لفي ضَرْبٍ مِن نقص رأس المال نقصًا كُلِّيًّا أو جزئيًّا؛ وذلك بتضييعِه عمرَهُ الذي به يتأتّى له تحصيلُ القربِ مِنَ اللّه تعالى ورضوانِه وثوابه الأبديِّ الدّائم، ضيَّعه بالمعصية واتِّباعِ الشَّهواتِ الموجبة البُعْدَ مِنَ اللّه ﷻ واستجلابَ غضبِه وسخَطِه[3].

أمدٌ قصير، وعيشٌ حقير، ثُمَّ إلى الرَّمس الضَّيِّق الصَّغير

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 529، 530.
(2) النَّحّاس، إعراب القرآن: 5/ 179.
(3) المهائميُّ، تبصير الرَّحمن: 3/ 567.

نكتة توالي المؤكّدات في جملة جواب القسَم:

يخسر الإنسان مِن عُمره طَوال لحظات حياته، ولا يفيق إلّا عند مماته

في جملة جواب القسَم، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ جملة مِن المؤكّدات، أحدها: القسَمُ، وثانيها: حرف التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾، وثالثُها: (اللّام)، وجيءَ بقوله: ﴿لَفِي خُسۡرٍ﴾؛ ليكون ذلك أبلغ مِن أنْ لو قيلَ: (لخاسر)، ووجهُ ذلك أنَّ (في) دالَّةٌ على الظَّرفيَّة، فكأنَّ الإنسان موغِلٌ في الخُسرِ منغمِسٌ فيه، والخُسرانُ محيطٌ به مِن كلّ جانب[1].

وكلُّ هذا للمبالغة في بيان كون الإنسان في خسرٍ[2]، وجيءَ بهذه المؤكِّداتِ جميعِها؛ لغرابةِ القضيَّة، وبُعْدِها عن مُدْرَكاتِ العباد، فكانت حالُهم كحالِ الشّاكِّ فيها أو المُنْكِر لَها، ومكذِّب لذلك؛ إمّا بلسانِ الحال وإمّا بلسانِ المقال[3].

وجيءَ بهذا الخبرِ على العموم مؤكَّدًا بالقسَم وحرفِ التَّوكيد في جوابِه مع اللّام في ﴿لَفِي﴾؛ لإفادَةِ التَّهويلِ والإنذارِ بالحالِ المحيطَةِ بأكثرِ الخَلْق.

وأُعْقِب ذلك بالاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لتقريرِ الحُكْم على وجهِ التَّمام في نفس المُتَلَقّي، مُفيدًا أنَّ النّاس قسمانِ: قِسْمٌ تلحقه الخسارَةُ، وقسمٌ لا يلحقه شيء من ذلكَ[4].

نوع تعريف لفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

التَّعريف في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ للجِنس[5]، فالمرادُ بالإنسانِ: جنسُ النّاس[6]، فهو مفرد في اللَّفظ، ولكنَّ معناه الجمع لا الواحد[7].

التَّعريف للاستغراق بقرينة الاستثناء

(1) العثيمين، تفسير جزء عمَّ، ص: 308.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 280، وابن عادل، اللُّباب: 20/ 486، والنَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 6/ 559.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 22/ 236.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 531.
(5) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 336.
(6) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 333، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 180.
(7) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 590، وأبو حفص النَّسفيُّ، التَّيسير في التَّفسير: 15/ 470.

وعليه فإنَّ اللّامَ في لفظِ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ دالَّةٌ على الاستغراقِ، بدليل ذِكر الاستثناء بعدها، فإنَّ صِحَّة الاستثناء معيارٌ للعموم والاستغراق، و(الـ) الاستغراقيَّةُ هي التي يحلُّ محلَّها لفظُ (كلّ)، ويصِحُّ الاستثناء مِن مدخولها، والمَعْنى هنا: إنَّ كلَّ فرد مِن أفراد الإنسان لفي خُسْرٍ في مُتاجَره، وغبنٍ في سعيِه، وصرفِ عُمُرِه في أعمال الدُّنيا، وضلالٍ عن الحقّ، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

ويجوزُ أن تكون اللّامُ للعهد الحضوريّ، وحقيقَتُها: أنَّها ما عُهِد مصحوبُها ذهنًا، والمرادُ: إنَّ الإنسان المعهود في ذهنك يا أيُّها الرَّسولُ الكريمُ، وهم جماعة مِن صناديد قريش، كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب بن أسد.

والأوَّل أولى وأظهَرُ؛ لِما في لفظ الإنسان مِن الشُّمولِ والعموم، ولدلالة الاستثناء عليه[1]، فيكونُ المرادُ بالإنسانِ جنسَهُ، ويدخل فيه الكافِرُ دخولًا أوَّليًّا[2].

سرُّ إيثار التَّعبير بقوله: ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ دون (النّاس):

﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ هاهنا في معنى النّاس، وهو اسم الجنس يقع على الجميع، كقولهم: كثر الدِّرهم في أيدي النّاس[3]، وقوله تعالى: "﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾، أي: هذا النَّوع الذي هو أشرف الأنواع لكونه في أحسن تقويم، وأيضًا فإنَّ العصر خلاصة الزَّمان، والعصرُ يكون لاستخراج خلاصات الأشياء"[4].

يتفاوت الخُسران مِن إنسان لإنسان، ويدُ الله مع جماعة الإيمان

فالتَّعبير بالإنسان وإرادة النّاس مِن باب إطلاق الخاصِّ وإرادة العامِّ[5]، وفيه فائدة ليست في التَّعبير بالنّاس جمعًا؛ إذ إنَّ هذا

(1) الهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 32/ 301.
(2) طنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 501.
(3) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 24/ 296.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 22/ 237.
(5) الزُّحيلي، التَّفسير المنير: 30/ 392.

اللَّفظ المفرد يفيد أنَّ كلَّ إنسان في نوعٍ مِن الخسران يختلف عن غيره، أي: إنَّ جنس الإنسان لا بدَّ وأن يتَّصفَ بالخسارةِ والنَّقصِ، وفقدان الرِّبح في مساعيه وأعماله طولَ عُمره، وإنَّ هذا الخُسران ليس على درجةٍ واحدةٍ، بل يتفاوتُ قوَّةً وضعفًا.

فأشدُّ النّاسِ خسارةً هو الكافر الذي أشرك مع اللّه تَعالى إلهًا آخَر في العبادة، وأقلُّهم خسارة هو المؤمن الذي خلط عملًا صالحًا وآخَر سيِّئًا، ثمَّ تاب إلى اللّه ﷻ توبةً نصوحًا[1].

ولو قيل: إنَّ النّاس لفي خُسر؛ لأوْهَمَ أنَّهم بمجموعهم في خُسر، ولربَّما ظُنَّ أنَّ هذا الخسران؛ بسبب أنَّ أكثر النّاس لا يؤمنون، فحينئذٍ يقال: وما ذنب القلَّة التي آثرت الإيمان على الكفر؟ فلذا أوثر الإفراد هنا؛ لتفاوُت الخُسران مِن إنسان لإنسان، ولأنَّه لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى، وليكون الجمع في صفِّ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فهم بمجموعهم في فوز وربح، لا يشقى بهم جليسُهم، ولا يُضام مِن ركب معهم، فيدُ اللّه تعالى مع الجماعة الصّالحة المُصلِحة.

بلاغة استعمال حرف الظَّرفيَّة: ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾:

الأصل في معنى (في) أنَّه موضوع للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّة أو زمانيَّة، حقيقيَّة أو مجازيَّة[2].

الظَّرفيَّة المستفادَةُ مِن قوله تعالى: ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ مجازيَّة، فقد شُبِّهَ ملازمةُ الخُسرانِ بإحاطة الظَّرف بالمظروف، فكان ذلك أبلغَ مِن أن يقال: إنَّ الإنسان لخاسر[3]؛ لأنَّ التَّعبير بالظَّرفيَّة يُشعِر بأنَّ العَبْدَ كأنَّه مغمور بالخُسْرانِ، وأنَّ هذا الخَسارُ قد أحاط به مِن كلِّ جِهَةٍ[4].

أحاط الخُسران بـجـنـس الإنـسـان، إلّا أهـل الـصَّـلاح والإيمان

(1) طنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 501.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 471، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 57.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 531.
(4) طنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 501.

وهذه حقيقة واقعة، فإنَّ العَبْدَ لا ينفكُّ عن الخسرانِ؛ إذ الخسرانُ هو إضاعةُ رأس المالِ، ورأسُ العَبْدِ عمرُهُ الذي يعيشُهُ، وقلَّ أن يسلَمَ مِنْ تضييعِ عُمُرِهِ، ووجه ذلك أنَّ كلَّ زمنٍ يمرُّ بالعَبْدِ إمّا أن يكون في معصيةٍ من المعاصي، فهذا خسرانٌ ظاهِرٌ بيِّنٌ، وإمّا أن يكون في مباحٍ؛ فإنَّ الخسرانَ واقع كذلك؛ لأنَّ زمن الشُّغْلِ بمباحٍ كان العبدُ متمكِّنًا من أن يعمل فيه عملًا صالحًا يجدُ أجره في الآخرة، وإمّا أن يكون في طاعةٍ، فإنَّهُ ما مِنْ عملٍ يعمله العبد على وجه الطّاعة والقُربةِ إلّا ويُمكِنُه أن يأتي بهِ على وجهٍ أحسنَ وأمثلَ؛ "لأنَّ مراتب الخضوع والخشوع للّه غير متناهية، فإنَّ مراتب جلال اللّه وقهره غير متناهية، وكلَّما كان عِلم الإنسان بها أكثر؛ كان خوفه منه تعالى أكثر، فكان تعظيمه عند الإتيان بالطّاعات أتمَّ وأكملَ.

وتركُ الأعلى والاقتصار بالأدنى نوعُ خُسران، فثبت أنَّ الإنسان لا ينفكُّ البتَّة عن نوعِ خُسران"[1].

بلاغة استعمال مفردة الخسارة:

خُسران النّاس في متاجرِهم ومساعيهم، وصرف أعمارِهم في مباغيهم

تدور مادَّة (خَسِرَ) حول معاني النَّقص: نقْص الشَّيءِ بذهاب أجزاء منه فقدًا[2]، فيُطلَق على نقص رأس المال، والخسرانُ قد يُضاف إلى الإنسان، فيُقال: خسرَ فلانٌ، ويُضاف إلى الفعل، فيقال: خَسِرتْ تجارتُه، كما قال اللّه تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [النّازعات: 12]، وقد يُضافُ إلى المقتنيات الخارجة، مِنْ نحو المال والجاه في الدُّنيا، وهو الأكثر، أو في المقتنيات النَّفسيَّة، مِن نحو الصِّحَّة والسَّلامة، والعقل والإيمان، والثَّواب، وهو الذي جعله اللّه تعالى الخُسرانَ المبين، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 280.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، الاشتقاقيُّ: (خسر).

﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزُّمر: 15]، وقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [البقرة: 121][1].

"فالخسران: ذهاب رأس مال الإنسان في هلاك نفسه وعمره بالمعاصي، وهما أكبر رأس ماله"[2].

وهذا التَّعبير بالخسارة مناسب لما أريد به مِن المعنى أتمَّ مناسبة؛ فإنَّ عمر الإنسان لا يذهب دفعة واحدة، بل ينتقص بذهاب أيّامه ولحظاته فقدًا، وهذا العمر هو رأس ماله، فإمّا أن يَتَّجر به في الطّاعات فيربح الجنَّة، ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: 111]، وإمّا أن يتَّجر به في المعاصي والآثام فيغبن، و﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: 15].

بلاغة الاستعارة في لفظ ﴿خُسْرٍ﴾:

ما أعظم الغبنَ والخُسر بضياع زهرة العمر!

قوله تعالى: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾، أي: لفي غَبْنٍ[3]، والخُسر والخُسران معناهما واحدٌ، فالخُسر: نقص رأس المال أو هلاكُهُ، "والإنسان إذا لم يستعمل نفسه وعمره فيما يوجب له الرِّبح الدّائم، فهو في خُسران؛ لأنَّه عَمِلَ في إهلاك نفسه وعُمره، وهما أكبر رأس ماله"[4].

والمعنى: أنَّ النّاس في خسارٍ إلّا الصّالحين، فليسوا كذلكَ؛ إذْ إنَّهم اشتروا الآخرة بالدُّنيا، فربحوا غاية الرِّبح، وسعدوا غاية السَّعادَةِ، وغيرُهُم اتَّجَروا خلاف تجارتِهم، فخسروا، وشقوا[5].

وعلى هذا فالخُسْرُ في الآيةِ استعارة تصريحيَّةٌ؛ وذلك لأنَّ أصلَ الخسْرِ إضاعةُ رأس المال في التِّجارة، فاستُعير ذلك لإبطال الفطرة السَّليمة وفسادِ العقل الذي هو بمنزلة رأس مال؛ لكونِهِ سببَ الوصولِ

(1) الرّاغب، المفردات: (خسر).
(2) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 24/ 297، والبغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 522.
(3) السَّمعانيُّ، تفسير القرآن: 6/ 278.
(4) ابنُ الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 487.
(5) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 794.

إلى الحقِّ ونيل درجاتِ الكمال، ولمّا اعتقدوا الباطِلَ الضَّلالات؛ بطل استعدادهم، واختلَّ عقلهم، ولم يبقَ لهم رأس مال يتوصَّلون به إلى إدراكِ الحقِّ ونيل درجاتِ الكمال، فبقَوا في خُسران عظيمٍ آيسينَ عن الرِّبح بل عن مقارَبَتِهِ، بخلافِ المؤمنين؛ فإنَّهم قد ربحوا في تجارتهم واشترائهم، واستكمَلوا عقلهم الخالص؛ محصِّلين به الهدى والكمالاتِ، ففازوا بالسَّعادةِ الأبديَّةِ في دارِ النَّعيم[1].

أو أنَّ الخُسر هنا مستعار "لسوء العاقبة لَمن يظنُّ لنفسه عاقبة حسنة، وتلك هي العاقبة الدّائمة، وهي عاقبة الإنسان في آخرته مِن نعيم أو عذاب"[2].

غرض تنكير لفظ ﴿خُسْرٍ﴾، ودلالة إفراده:

خُسرانٌ عظيم لمَن ضلَّ عن الصِّراط المستقيم

يجوز أن يكون التَّنكير في ﴿خُسْرٍ﴾؛ للتَّعظيم في مقام التَّهويل وفي سياق القسَم[3]، أي: إنَّ الإنسان لفي خسارٍ كبيرٍ لا يعلم قدرهُ إلّا اللّه تَعالى، وبيانُ ذلك أنَّ الذَّنْبَ يُنظر إلى عِظَمِه وشناعَتِه بحسب مَنْ كان في حقِّه الذَّنب، أو لوقوعِهِ في مقابلةِ نِعَمٍ جليلةٍ، وكِلا هذين حاصلٌ في ذنب الإنسانِ في حقِّ ربِّه تَعالى، فلا ريبَ كانَ ذلك الذَّنب في غاية الشَّناعَةِ والعِظَم[4].

وجائزٌ أن يكون التَّنكيرُ لإرادَةِ التَّنويع، والمعنى: أنَّهُ نوعٌ مِن الخُسران غير معهودٍ[5]، ويجوز أن يكون للتَّحقير، أي: إنَّ خسار العبدِ دون خَسارِ الشَّيطان، وفي ذلك بشارة أنَّ في خلقِ اللّه تَعالى مَن هو أعصى من الإنسانِ، والوجهُ الأوَّل أصحُّ وأظهَرُ[6].

(1) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 427.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 531.
(3) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 336، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 532.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 279.
(5) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 395.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 279.

وأُفرد لفظُ الخُسرِ مع تنوُّعِ أصنافِهِ؛ لأنَّ الخُسرانَ الحقيقيَّ هو حرمانٌ عن طاعة ربِّه سبحانه، وما سوى ذلك؛ فهو بمنزلةِ العدم[1].

وأُطلِق الخسرانُ، فلم يُقيَّدْ بنوعٍ خاصٍّ لإفادَةِ العموم[2]، فلم يقل: (لخاسر)، يعني: في زمن معيَّن أو في تجارة أو عمل معيَّن، بل قال سبحانه: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾، أي: ضياع مطلَق، قليل أو كثير، أو لفي خسرٍ في كلِّ حياتِه مِن زمن بلوغه إلى مماته، أي: دائمًا في خسر، فيشمل ذلك كلَّ أنواع الخُسر أو الخسارة في الدُّنيا والآخرة، وأشدُّ أنواع الخُسر يكون في الآخِرة[3]، فالخسر هنا عامٌّ يصدق على أفراده، "فهو إمّا بالخلود إنْ ماتَ كافرًا، وإمّا بالدُّخول النّارَ؛ إنْ مات عاصيًا، ولم يُغفَر له، وإمّا بفوت الدَّرجات العاليات؛ إن غُفِر له"[4]، فيتنوَّع ذلك "بحسب تنوُّع النّاس إلى أكياس وأرجاس، فمَن كان كافرًا؛ كان في كُفران، ومَن كان مؤمنًا عاصيًا؛ كان في خُسران؛ إنْ كان بالغًا في المعصية، وإلّا كان في مطلق الخُسر، وهو مدلول المصدر المجرَّد"[5].

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عن سابقه:

فُصِل قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه في موضع جواب سؤال ناشئ عن قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ﴾، وتقدير هذا السُّؤال: ألن ينجوَ أحَدٌ؟ فجاء الجواب بيانًا لفضل المؤمنين العاملين على غيرهم.

أوثر الفصل بيانًا للعدل، وإيذانًا بالفضل

بلاغة الاستثناء ونوعه في ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

يتحدَّد نوع الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

عدالةُ الله تعالى مطلقةٌ كاملة، ورحمتُه سبحانه سابغةٌ فاضلة

(1) ابن عادل، اللُّباب: 20/ 486.
(2) الشِّنقيطيُّ، أضواء البيان: 9/ 89 (بإكمال تلميذه عطيَّة سالم).
(3) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 491.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 459.
(5) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 22/ 237.

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بحسب تحديد نوع التَّعريف في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾، فإنْ حُمِل لفظُ الإنسان على جميعِ بني آدم، فإنَّ الاستثناءَ يكونُ متَّصلًا، وإنْ حُمِلَ على خصوصِ الكُفّار؛ فإنَّ الاستثناءَ يكونُ منقطعًا بمعنى: لكنْ[1].

والرّاجح الأوَّل؛ لأنَّهُ بمعنى النّاس على الصَّحيح[2]، فيندرِجُ تحت هذا الاستثناءِ كلُّ مؤمن ومؤمنة، وأمّا ما قيل مِن أنَّ المراد بذلك الصَّحابة أو بعضُهم؛ فلا وجْهَ لَهُ؛ إذ اللَّفظُ عامٌّ، لا يخرج عنه أحدٌ ممَّن اتَّصفَ بالأوصافِ المذكورةِ مِنَ الإيمان والعمل الصّالح[3].

وفي هذا الاستثناء تسلية للمؤمن مِن فوْتِ عُمره وشبابه؛ لأنَّ العمل قد أوصله إلى خيرٍ مِن عُمرِه وشبابِه، وتنبيهٌ على أنَّ كلَّ ما دعاك إلى طاعة اللّه؛ فهو الصَّلاح[4].

بلاغـة التَّعـبير بالاسـم الموصـول دون الظّـاهر فـي ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

الإيمان والصَّلاح علَّة كـلّ فلاح ونجاح

أوثر التَّعبير بالاسم الموصول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون (المؤمنين)؛ لإفادة أنَّ مضمون الصِّلة هو علَّة الحكم، مع إفادة التَّعميم والتَّعظيم، فالمراد بالاسْمِ الموصول جميعُ مَن اتَّصف بالمذكورِ في الصِّلة[5].

وقد أفاد استثناءُ المتَّصفين بمضمون الصِّلة ومعطوفها إيماءً إلى علَّة حكم الاستثناء، وهو نقيض الحكم الثّابت للمستثنَى منه، فإنَّهم ليسوا في خسر لأجل أنَّهم آمنوا، وعملوا الصّالحات.

وقد دلَّ هذا الاستثناء أيضًا على أنَّ سبب كون بقيَّة الإنسان في خسر، هو عدم الإيمان والعمل الصّالح؛ بدلالة مفهوم الصِّفة، وعُلِم

(1) أبو حفص النَّسفيُّ، التَّيسير في التَّفسير: 15/ 470.
(2) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 180.
(3) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 5/ 601.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 281.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 458.

مِن الموصول أنَّ الإيمان والعمل الصّالح هما سبب انتفاء إحاطة الخسر بالإنسان[1].

دلالة ذِكر الإيمان بالفعل الماضي: ﴿ءَامَنُواْ﴾:

التَّعبير بالماضي يفيد التَّحقيق، وهو توكيد المعنى حقيق

يفيد التَّعبير بالفعل الماضي الدَّلالة على التَّحقُّق، أي: تحقُّق وقوع الفعل وحدوثه، وفي هذا نوعُ توكيدٍ، وإنَّ توكيدَ الإيمانِ والتَّدليل على تحقُّقه مناسب في سياق المدح به.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: أوجَدوا الإيمان، وهو التَّصديق والإقرارُ المستلزِمُ للإذعانِ بما عُلِم بالضَّرورة مجيءُ النَّبيِّ ﷺ به، مِن توحيد الله ﷻ، والتَّصديقِ بملائكته وكُتُبه ورُسُله واليوم الآخِر والقدَرِ خيرِه وشرِّهِ، وفي التَّعبير بالماضي حثٌّ على الدُّخول في الدِّين، ولو على أدنى الدَّرجات، وأيضًا فإنَّ فيه بشارةً لمَن فعل ذلك بشَرْطِهِ بالنَّجاة مِن الخُسرانِ[2].

دلالة عطف العمل على الإيمان في ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

الإيمان تصديقٌ وقولٌ وعمل، وهذه حقيقةٌ لمَن غرَّه الأمل

في عطف العمل الصّالح على الإيمان دلالة على تلازمهما، فإنَّ الإيمان تصديقٌ بالجَنان، وقول باللِّسان، وعمل بالجوارح والأركان، فقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصّالحات بجوارحهم[3].

وقُدِّمَ الإيمانُ على العمل الصّالح؛ للإيماءِ إلى أنَّ الإيمانَ هوَ الباعثُ على العمَلِ الصّالح، فالإيمان يدفع صاحبه إلى الخير، ويَزَعُهُ، ويردعُهُ عن الشَّرِّ، وأيضًا فإنَّ في ربط الإيمان بالعمل الصّالح إشارةً إلى تلازمهما، وفيه اعتبارُ العمل الصّالح مظهرًا للإيمانِ بل جزءًا مِنْهُ، وهذه الملازَمَةُ بين الإيمان والعمل الصّالح

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 532.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 22/ 238.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 480.

يُلحَظ في كثيرٍ مِنَ الآيات القرآنيَّة، ممّا يدلُّ على إرادَةِ الإشارة إلى شدَّة الارتباط بينهما[1].

ولمّا كانت حقيقةُ الإيمانِ مشتملةً على التّصديق بالقَلْبِ والقول باللِّسانِ والعَمَل بالجوارِح؛ كان عَطْفُ العملِ الصّالح على الإيمانِ في قوله: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من بابِ الإطْنابِ بعَطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ تنبيهًا على فضيلةِ العمل الصّالِحِ بذِكْرِهِ مرَّتين، إحْداهُما: مُنْدَرِجًا تحتَ لَفْظِ الإيمانِ، والأُخْرى: مُنْفَرِدًا.

نكتة حذف متعلِّق الإيمان:

حُذِف متعلِّق الإيمان في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ ليعمَّ كلَّ مأمور بالإيمان به دون تفصيل، فالمعنى: إلّا الذين صدَّقوا الله، ووحَّدوه، وأقرّوا له بالوحدانيَّة، وأذعنوا له الطّاعة، وعملوا الأعمالَ الصّالحات، وأدَّوا ما فرضَهُ عليهم، وتَجَنَّبوا ما نهاهم عنه مِن معصيَتِهِ[2]، وفي هذا الحذف تعميم واختصار وإيجاز، قد اكتسى ثوب البراعة والإعجاز.

يا لها مِن صفقة مـا أربـحَـهـا! ومنفعةٍ جامعة لـلـخـيـر مـا أوضحَها!

بلاغة قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ باعتباره لفظًا شائعًا:

شاع في القرآن الكريم استعمالُ تعبير ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مسبوقًا بفعل الإيمان، ماضيًا في صلة موصول جمعيٍّ؛ ليكون التَّركيبُ كاللَّقب لأهل الجنَّة، ذلك أنَّه يَرِد في القرآن مقرونًا بذِكر الجنَّة والأجر والثَّواب، في إشارة إلى أنَّ ما وقع في حيِّز الصِّلة هو علَّة الفوز بهذا الأجر العظيم.

مَن عمِل صالحًا بشرط الإخلاص والمـتـابـعـة؛ دخل جنَّةَ الله الواسعةَ

وهذا التَّعبير مع كونِهِ وجيزًا؛ فإنَّ معناه والمرادَ به يفوقُ أضعافَ لفظِه، فإنَّ قوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وصف لموصوف محذوف تقديره: (الأعمال)، "والعمل الصّالح شامل لأفعال

(1) دروزة، التَّفسير الحديث: 1/ 568.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 590.

الخير كلّها، الظّاهرة والباطنة، المتعلّقة بحقّ الله وحقّ عباده، الواجبة والمستحبَّة"[1].

ولفظُ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عامٌّ مطلَق، يشتمِلُ على كلِّ أنواع الخير والبرّ والمعروف، سواءٌ أكان على وجهِ التَّعبد أم لا؟ فعبادة الله تَعالى وحدَه وإسلام النَّفس إليه والانقيادُ لشرعِهِ: عملٌ صالح، وأيَضًا فإنَّ الإحسان والبرَّ بالمحتاجين ورحمة الضُّعفاء عملٌ صالحٌ كذلك، والجهاد في سبيل الله تَعالى وإعلاء كلمتِهِ، ومقاومَةِ الظُّلم والظّالمين وبذل النَّفس والمال في سبيلِ ذلك عملٌ صالح أيضًا، لزوم الحقّ والعدل والإنصاف والصِّدق والأمانة عملٌ صالح، والتَّعاون على البرّ والتَّقوى عملٌ صالح، والكسب الحلال والقيام على شؤون الأهل والعيال ونحوهم عملٌ صالح، ومعاملة النّاس بالحسنى عملٌ صالح... إلخ، وهكذا يكون تلقين السّورة وما انطوت عليه مِن هدف الدَّعوة هو البشارةُ بكلّ عمل فيه خير وبرٌّ ورحمة ومكرُمة وفضيلة وإخلاصٌ لله تَعالى، وبكلمة ثانية بكلّ ما فيه جماع الخير وسعادة الدّارين، وأعظِمْ بهَذَيْنِ مِن تلقينٍ وهدفٍ عظيمين[2]!.

معنى التَّعريف في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ودلالة جمعه:

(الـ) في قوله: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يُراد بها الجنس، والمقصودُ بذلك الاستغراق، أي: عملوا جميع الأعمال الصّالحة، التي أُمِروا بعملها بأمْر الشَّرعِ، وعَمَلُ الصّالحات يندرِجُ فيهِ تركُ السَّيِّئات[3]، فقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: عملوا هذا الجِنْسَ، وهو اتّباع الأوامر، واجتناب النَّواهي، سواءٌ أكان ذلك في العباداتِ، كالصَّلاة، أم العادات، كالبيع، فاشتروا الآخرة بالدُّنيا، فلم يُلهِهِم

استبدلوا الباقياتِ الصّالحات بالغادياتِ الرّائحات

(1) السَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 934.
(2) دروزة، التَّفسير الحديث: 1/ 562 - 563.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 532.

التَّكاثر، ففازوا بالحياة الدّائمةِ الأبديَّة والسَّعادة السَّرمديَّة، فلم يعْرِض لهم شيء مِن الخسارةِ[1].

وفي الجمعِ دلالةٌ على الكثرة والتَّنوُّع، في إشارة إلى ضرورة الاستكثار مِن الخير، والتَّزوُّد مِن البِرّ، والضَّرب بسهم في كلِّ ذي نفع أُخرويٍّ، فإنَّ العبد لا يدري أيَّ حسنة يدخله اللّه تعالى بها الجنَّة بعد فضله ومنِّه ورحمته سبحانه.

بلاغة ترتيبِ المذكور: الإيمان، فالعمل، فالتَّواصي:

الإيمان وقودٌ لعمل الصّالحات، ولزوم الجماعة صيانةٌ مِن الانحرافات

حَكَم اللّه ﷻ بالخسران على النّاس جميعِهم إلّا مَن كان متَّصفًا بهذه الأوصاف الأربعة، وهي: الإيمان، والعمل الصّالح، والتَّواصي بالحقِّ، والتَّواصي بالصَّبر، فدلَّ ذلك على أنَّ النَّجاة معلَّقة بمجموع هذه الأمور كُلِّها، وأنَّه كما يَلزَم العبدَ أن يُحصِّلَ ما يخصُّ نفسَه؛ فكذلك يَلزَمُه في غيرِه أمورٌ، منها: الدَّعوة إلى الشَّرع، ومناصحةُ الخَلْقِ وأمرهُم بالمعروف ونهيُهم عن المنكر، وأنْ يحبَّ لغيرِه ما يحبُّه لنفسه[2].

فبالأمرَيْن الأوَّليْن - وهما الإيمان والعمل الصّالحُ - يكمِّل الإنسانُ نفسَه، وبالأمريْن الأخيريْن - وهما التَّواصي بالحقِّ والتَّواصي بالصَّبْرِ - يكمِّل العبدُ غيرَه، وبتكميل الأمور الأربعة جميعًا يكون الإنسانُ قد سلم مِن الخسرانِ، وفاز بالرِّبح الجليل[3]، وبيان ذلك أنَّ المراتب أربعةٌ، وبتكميلِها يحصل للعبدِ غايةُ كمالِه:

الأولى: معرفة الحقِّ.

الثّانية: عَمَلُه به.

الثّالثة: تعليمه مَن لا يعلمُهُ.

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 22/ 239.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 282.

(3) السَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 934.

الرّابعة: صبره على ما تقدَّمَ، فيصبرُ على تعلُّمه والعمل به وتعليمه، وقد ذكر الله تعالى المراتب الأربعة كُلَّها في هذه السّورة، وأقسم سبحانه في هذه السّورة بالعصر على أنَّ كلَّ إنسانٍ في خسران: "﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: وهم الذين عرفوا الحقَّ، وصدَّقوا به، فهذه مرتبة، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: وهم الذين عَملوا بما عَلِموه مِن الحقِّ، فهذه أخرى، ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾: وصَّى به بعضُهم بعضًا تعليمًا وإرشادًا، فهذه مرتبة ثالثة، ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾: صبروا على الحقِّ، ووصَّى بعضُهم بعضًا بالصَّبر عليه والثَّبات، فهذه مرتبة رابعة، وهذا نهاية الكمال، فإنَّ الكمال أن يكون الشَّخص كاملًا في نفسه، مكمِّلًا لغيره، وكمالُه بإصلاح قوَّتَيْه العِلْميَّة والعَمَليَّة، فصلاح القوَّة العِلميَّة بالإيمان، وصلاح القوَّة العَمليَّة بعمل الصّالحات، وتكميلُه غيرَه بتعليمِه إيّاه، وصبرِه عليه، وتوصيته بالصَّبر على العِلم والعَمل، فهذه السّورة - على اختصارها - هي مِن أجمع سوَر القرآن للخير بحذافيره، والحمد لله"[1].

ثمَّ إنَّ هذا التَّرتيب بين الأمور الأربعة جاء على غاية الإحكام والإبداع، وذلك حيث بدأ بالإيمان الذي هو سبب فيما بعدَه، وكأنَّه المحرِّك الدّافع لعمل الصّالحات بما يولِّده في قلب أصحابه مِن محبَّةِ الله تعالى، التي توجب طاعتَه وطاعةَ رسوله ﷺ، ومِن معرفتِه سبحانه التي تورث خشيتَه والفَرَق مِن عقابه، وكلَّما زاد الإيمانُ؛ زاد الصَّلاح، وارتقى أصحابه في مراقي السَّعادة والفلاح.

ثمَّ يصيرون بعد ذلك؛ "لشدَّة محبَّتهم للطّاعة لا يقتصرون على ما يخصُّهم، بل يوصون غيرهم بمثل طريقتهم؛ ليكونوا أيضًا سببًا لطاعات الآخرين، كما ينبغي أن يكون عليه أهل الدِّين، وعلى هذا الوجه قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التَّحريم: 6]، فالتَّواصي بالحقِّ يدخل فيه سائر الدّين مِن علم وعَمل"[2].

وهُم متى ما ألزموا أنفسهم بطاعة الله تعالى واجتناب معصيته سبحانه؛ فهُم في مسيس الحاجة إلى الصَّبر على فعل الطّاعات، والصَّبر عن ارتكاب المحرَّمات.

وهُم متى ما دعوا إلى ربِّهم فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر؛ فإنَّ الشَّياطين سيوحون

(1) ابن القيّم، الضَّوء المنير، ص: 449.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 281.

إلى أوليائهم؛ ليجادلوا أهل الصَّلاح، ويحاربوهم، وهذا أمرٌ شاقٌّ شديد يحتاج مجاهدة ومصابرة، والآيات - التي أمر الله تعالى فيها رسولَه ﷺ بالصَّبر على أذى المشركين أثناء دعوتِهم - كثيرةٌ، فجاء ترتيب الأمور الأربعة على وفْقِ الحكمة البالغة.

نوعُ العطفِ في قوله: ﴿وَتَوَاصَوْاْ﴾:

عُطِفَ التَّواصي بالحقِّ والتَّواصي بالصَّبر على عمل الصّالحات - وإنْ كان ذلك مِن جملةِ عمل الصّالحات - وهذا من باب عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ اهتمامًا بشأن الفردِ الخاصِّ؛ لأنَّه قد يُغْفَل عنه، فيُظَنُّ أنَّ العملَ الصّالحَ هو ما عَمِلَهُ العبدُ في خاصَّةِ نفسِه، فجاء التَّنبيه على أنَّ مِن العملِ الصّالحِ المأمور به إرشادَ المسلم غيرَه ودعوته إلى الحقِّ، فالتَّواصي بالحقِّ يندرجُ فيه تعليم حقائق الشَّرعِ وعقائد الحقِّ ورياضة النَّفس على فهْمِها بفعل المعروف وترك المنكر.

اشـتَرَوا الآخـرةَ بالدُّنيا، ففازوا بالحياةِ الأبديَّة، والـسَّـعـادةِ السَّرمديَّة

ثُمَّ إنَّ التَّواصي بالصَّبر عُطِفَ على التَّواصي بالحقِّ مِنْ بابِ عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ كذلك، وإنْ كان خصوصه خصوصًا مِن وجه؛ لأنَّ الصَّبرَ تحمُّلُ مشقَّة إقامة الحقِّ وما يعترض المسلمَ مِن أذى في نفسه في إقامة بعض الحقِّ[1].

فالحاصل أنَّ هذا مِن عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لقصدِ المبالغة[2]؛ لأنَّ ذلك يدلُّ على أنَّ الخاصَّ لكمالِه وتميُّزِه بلغ رتبةً خرج بها عن أن يندرجَ تحت العامِّ، كما هوَ معروفٌ في نظائرِه[3].

دلالة التَّعبير بقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ﴾ مِن حيث مادَّته وصيغته:

تدور معاني مادَّة (وصي) حول وصلِ شيء بشيء[4]، وأمّا معناها المحوريُّ؛ "فالتزامُ الأشياءِ بعضها بعضًا كالمحزوم بالجريد

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 532 - 533.
(2) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 336.
(3) الشِّهاب الخفاجيُّ، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 395.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وصى).

صـلاحُ الـقـوَّة الـعِـلـمـيَّـة بـالإيـمـان، وصـلاحُ الـقـوَّة العَمليَّة بعمل الـصّـالـحـات والإحسان

والنَّبات الملتفّ، وكالمتَّصل بعضُه ببعض منه؛ إذ هو متضامٌّ، ومِن هذا الالتزام جاء معنى الإيجاب في الوصيَّة، فهي عهد وتكليفٌ وإلزام"[1]، والوصيَّة: أن تتقدَّم إلى غيركَ بما يعمل به مقرونًا بوعظٍ وتذكيرٍ، وهو مأخوذٌ مِن قولهم: أرضٌ واصيَةٌ؛ إذا كانت متَّصلةَ النَّبات[2]، هذا مِن حيث الدَّلالة المعجميَّة للجذر.

وأمّا مِن حيث الدَّلالة الصَّرفيَّة فإنَّ التَّعبير بصيغَةِ (التَّواصي) قويٌّ؛ لأنَّه يدلُّ على المشارَكة، فلا يكفي أن يلتزم العبدُ الحقَّ والصَّبر بنفسِه، بل يجب أن يُشْرِكَ النّاسَ فيهما، ويوصي بعضُهم بعضًا بهما[3].

فالتَّواصي على زِنَة تفاعُل، وهي صيغةٌ تدلُّ على المشاركةِ في توجيه الوصيَّة، أي: يوصي شخصانِ، فأكثر بعضُهُم بعضًا، وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾، أي: وأوصى بعضُهم بعضًا بلزوم العَمَلِ بما أنزل اللّه في كتابه مِن فعلِ الأوامرِ، واجتناب النَّواهي[4]، وقد دلَّت الآية الكريمةُ على أنَّ الحقَّ ثقيلٌ، وأنَّ المحن تقارِنُهُ، وتلازِمُهُ؛ فلذلك قُرِنَ التَّواصي به[5]، وقال اللّه تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ﴾ دون: (وأوصوا)؛ لبيانِ أنَّ النَّجاة مِن الخسارةِ إنَّما تُناط بحرص كلٍّ مِن أفراد الأُمَّة على الحقِّ، وركونِ كلٍّ منهم إلى أن يوصيَ به قومَه، ومَن يهمُّه شأن الحقِّ؛ ليوصيَ صاحبه بطلبه؛ يُهِمُّه أن يرى الحقَّ، فيقبله، فكأنَّ في هذه العبارة الجزلة نصًّا على تواصيهم بالحقِّ وقبولهم الوصيَّة به، إذا وُجِّهت إليهم[6].

وقال اللّه ﷻ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ﴾ دون: (ويتواصَوْن)؛ لئلّا يكونَ خبرًا

(1) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وصى).
(2) الرّاغب، المفردات: (وصى).
(3) دروزة، التَّفسير الحديث: 1/ 563.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 590.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 282.
(6) القاسميُّ محاسن التَّأويل: 9/ 538.

مرادًا به الأمرُ على وجهِ التَّأكيدِ؛ لأنَّ الغرضَ مدحُهم بما صدر عنهم في الزَّمنِ الماضي، وذلك يُفيدُ رغبتَهُم في الاستمرارِ عليه فيما يُستقبَلُ[1].

نوعُ الباء ودلالتُها في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

ما حادوا عن الحقِّ قيد شُعيْرة، ولم يرتضوا لأنفسهم غيرَه

الأصل في معنى (الباء) أنَّه موضوع للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[2]، وهو هنا للإلصاق المجازيّ؛ إذ جعل الوصيَّة، وهي الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر ملتصقَةً بالحقِّ، لا تحيد عنه، ولا تعرف غيره، فلا يصدر منهم قولٌ ولا فعل إلّا على وفق الحقِّ الثّابت شرعًا وعقلًا، وفي هذا دليل على استقامتهم وشدَّة حرصهم في اتّباعهم كتابَ ربّهم وسُنَّة نبيّهم ﷺ.

نوعُ تعريف لفظ (الحَقِّ):

تواصَوا بالأمرِ الثّابتِ الذي لا سبيلَ إلى إنكارِه، ولا زوالَ في الدّارين لمَحاسنِ آثارِه

قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾، أي: بالأمر الثّابت الذي لا يسوغ جحدُهُ، وهو الخير كلُّه، مِن توحيد اللّٰه تَعالى وطاعته، واتّباع كُتبه ورُسله ﷺ، والزُّهد في الدُّنيا والإقبالُ على الآخرة[3].

والحقُّ: هو ما تقرَّر مِن حقيقةٍ ثابتةٍ دلَّ إليها دليلٌ قاطع، أو عيان ومشاهدة، أو شرع صحيح جاء بها نبيٌّ معصومٌ[4]، فالتَّعريف فيه للجنس.

"والتَّواصي بالحقِّ يدخل فيه سائر الدِّين مِن عِلم وعملٍ، والتَّواصي بالصَّبر يدخل فيه حمْلُ النَّفس على مشقَّة التَّكليف في القيام بما يجب"[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 282.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 474، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 19.
(3) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 794.
(4) المراغيُّ، تفسير المراغي: 30/ 234.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 281.

ولفظ (الحقِّ) عامٌّ يشمل كلَّ شيء مِن حقوق الله تَعالى على عباده وحقوق المجتمع على أفراده والعكس، وحقوق المجتمعات على بعضها، وحقوق الضُّعفاء والبائسين والمحرومين على الأقوياء والقادرين والميسورين، وذلك يظهر مدى التَّلقين القرآنيِّ الجليل في التَّنويه بشأنِ التَّواصي بالحقِّ، وجعله لازمًا للمؤمنينِ العاملينَ الصّالحاتِ[1].

فائدة تكرار لفظ ﴿وَتَوَاصَوْاْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ بعد قوله سبحانه: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ إطناب بتَكرار الفعل؛ لزيادة العناية به[2]، وأيضًا لاختلاف المفعولَيْن[3]، فمِن ثَمَّ كرَّر التَّواصي؛ ليكونَ الأوَّلُ متضمِّنًا الدُّعاءَ إلى الله تَعالى، ويتضمَّنَ الثّاني الثَّباتَ عليه[4].

إطناب لإظهار العناية الجليلة، وبيان ما للصَّبر مِن فضيلة

وخُصِّص هذا التَّواصي بالذِّكرِ مع اندراجه تحت التَّواصي بالحقِّ؛ لبيانِ كمالِ العنايةِ به، أو لأنَّ الأوَّلَ يرادُ به رتبة العبادة التي هي فعلُ ما يرضَى به الله تعالى، ويُرادُ بالثّاني رتبةُ العبوديَّة التي هي الرِّضا بما فعل الله تعالى؛ وذلك لأنَّ المرادَ بالصَّبر ليس مجرَّد حبسِ النَّفسِ عمّا تتشوَّقُ إليه مِن فعلٍ وتركٍ، وإنَّما هو تلقّي ما وردَ من الله تعالى بالقبولِ الجميل، والرِّضا به ظاهرًا وباطنًا[5].

وفي جعل التَّواصي بالصَّبر مقرونًا بالتَّواصي بالحقِّ دليلٌ على جليلِ قدره، وعظيم شرفه، ومزيد جزاءِ الصّابرين على ما يجبُ الصَّبر عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: 153]، وأيضًا فإنَّ التَّواصي بالصَّبر ممّا يدخُلُ تحت التَّواصي بالحقِّ، فكان إفراده

(1) دروزة، التَّفسير الحديث: 1/ 563.
(2) الزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 30/ 392.
(3) القنَّوجيُّ، فتح البيان: 15/ 377.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 282، والطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 16/ 567.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 197.

بالذِّكر وتخصيصه بالنَّصّ عليه؛ دليلًا على فوقانِهِ على خصال الحقِّ، ومزيد شرفه عليها[1].

معنى تعريف لفظ (الصَّبْر):

صـــــبرٌ في الأحداث المُلِمَّة، والمـصـاعـب المُدلهمَّة

حقيقةُ الصَّبر: هوَ قوَّة للنَّفس تدعوها إلى تحمُّلِ المشاقِّ في العمل الطَّيِّب، وتهوِّن عليها احتمال المكروه قصْدَ الوصول إلى الأهدافِ العظيمة[2].

والتَّعريف فيه للعهد العلميِّ، فيشمل ما جاءت به النُّصوص آمرةً به أو مادحة مَن اتَّصف به، لا ما جاء في سياق الذَّمّ، كقوله تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦﴾ [ص: 6]، وقوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ۝١٧٥﴾ [البقرة: 175]، وقد قسَّم أهلُ العِلم هذا الصَّبر المحمود إلى ثلاثة أقسام:

أحدها: صبرٌ على طاعة الله.

ثانيها: صبرٌ عن محارم الله.

ثالثها: صبرٌ على أقدار الله[3].

وكلُّ هذا مراد مِن قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾، أي: الصَّبر "عن المعاصي، وعلى الطّاعات، وعلى ما يبلو الله به عبادَه"[4].

توجيه تخصيص التَّواصي بالحقِّ والصَّبر:

تخصيص هذين الأمرين بالذِّكر؛ لأنَّهما حِفاظُ كلِّ خير، ورأس كلِّ أمر

في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ طريق الإيمان والاستقامة على شرعِهِ ليس بالأمرِ السَّهْلِ الهيِّن، فإنَّ ذلك إنَّما يحتاج إلى صبر على مغالبة الشَّهوةِ، وقهر دواعي الهوى ونزعاتِ

(1) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 5/ 601.
(2) المراغيُّ، تفسير القرآن: 30/ 234.
(3) العثيمين، تفسير جزء عمَّ، ص: 311.
(4) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 794.

الشَّيطان، فطريق الحقِّ محفوف بالمكاره، والصَّبر زاد سالكي هذا الطَّريقِ، وبه يبلغون غايات الفلاح والنَّجاحِ[1].

وقد دلَّت الآية الكريمةُ على أنَّ الحقَّ ثقيل، وأنَّ المِحَن ملازِمَةٌ له؛ فلذلك ذُكِرَ مقرونًا بلفظِ التَّواصي[2].

ولمّا كانت الأوامر الشَّرعيَّةُ تُحَمِّلُ فاعلَها مشقَّةً في أدائها، وكان ذلك يقتضي صبْرًا، وكذا ما يتعلَّقُ بالمناهي، فإنَّها تُحمِّل الحريصَ على الطّاعة مشقَّة مخالفةِ شَهَواتِ نفسِه، وكان ذلك يقتضي صبْرًا كذلكَ؛ كانت الجملة الأخيرةُ مِن القيام بهذا الواجب هي التَّواصي بالصَّبر، وظاهرٌ أنَّ تَشارُكَ المؤمنين بأداء هذا الواجب يُبْرِزُ في المجتمع الإسلاميّ ظاهِرَةَ تعليمِ الأحكامِ الشَّرعيةِ والنُّصح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكَر، والتَّواصي بالصَّبر، فالتَّواصي بالصَّبرِ يدلُّ بطريقِ اللُّزومِ الذِّهنيّ على ما ينبغي أن يكون متقدِّمًا عليه مِن الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكَر، المسبوقَيْن بالنُّصح والإرشاد، اللَّذيْن قد تقدَّمَهُما تبليغُ أحكامِ دينِ اللّه تَعالى وتعليمُها وبيانُها[3].

ثمَّ إنَّ سعادة العَبْدِ تتمثَّلُ في قوَّتِهِ العِلميَّة وقوَّتِهِ العَمليَّة، وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ راجعٌ إلى القوَّة العِلميَّة الاعتقاديَّة؛ وذلك بمعرفة الأحكام الشَّرعيَّة مقترنةً بأدِلَّتِها، أو معرفتها على وجهِ التَّقليدِ بناء على أنَّ الحاصلَ عِلْمٌ أيضًا، والتَّواصي بالصَّبر راجع إلى القوَّة العمليَّة، ولذا جاءَ في الحديثِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «حُفَّتِ الجَنَّةُ بالمَكارِهِ، وحُفَّتِ النّارُ بالشَّهَواتِ»[4]، وهما شيئانِ مختلفانِ[5].

مناسبَةُ مقطَعِ السّورة لمَطْلَعِها:

لمّا افتُتِحت هذه السّورة بالقَسَم بالعصر، وهو ذلك الزَّمن الذي هو ميدان العمل ومضمار السِّباق إلى الخيرات؛ خُتمت ببيان طرُقِ اغتنام الزَّمان، والفوز في ذلك

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 16/ 1669.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 282.

(3) عبد الرحمن ابن حسن، تفسير القرآن: 1/ 614.

(4) الحديث أخرجه الشَّيخان: البخاريُّ في كتاب الرِّقاق، باب: حُجِبت النّار بالشَّهوات، برقم: (6487)، عن أبي هريرة ﷺ، وأخرجه مسلم - واللَّفظ له - في كتاب: الجَنَّة وصِفة نعيمها وأهلِها، برقم: (2822)، عن أنس بن مالك ﷺ.

(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 346.

الميدان، فقال سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾، فابتِداؤُها بيانٌ لقيمة الزَّمن وعِظَم أثره، وخاتِمَتُها بيان لطريقةِ استثماره وعدم خَسارَته.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّواصي والتَّعاون:

في التَّعاون إمدادٌ بالقوَّة، وفي التَّواصي اتِّصالٌ بإيصالِ الكلام

العَوْن: الظَّهير على الأمر[1]، يقال: فلانٌ عَوْني، أي: مُعيني، والتَّعاوُن: التَّظاهُر[2]، ويدور معناه حول الإمدادِ بالقوَّة، يقال: تعاونَ القومُ، أي: أعان بعضُهم بعضًا[3]، أي: أمَدَّ بعضُهم بعضًا بقوَّة[4]، قال الله ﷻ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: 2].

وفائدةُ التَّعاوُن تيسيرُ العمل، وتوفيرُ المصالح، وإظهارُ الاتِّحاد والتَّناصُر، حتّى يُصبحَ ذلك خُلُقًا للأُمَّة[5].

والواو والصّاد والحرف المعتلُّ: أصلٌ يدلُّ على وصلِ شيءٍ بشيء، يقال: وصَيْتُ الشَّيءَ، أي: وصَلْتُه، وأرضٌ واصية، أي: إنَّ نَبْتَها مُتَّصِلٌ قد امتلأتْ منه، ووصَيْتُ اللَّيلةَ باليوم، أي: وصَلْتُها، وذلك في عملٍ تعملُه، ويقال: وصَى النَّبْتُ، وتواصَى، أي: اتَّصل[6].

والوصيَّة مِن هذا القياس، كأنَّها كلامٌ يوصَى، أي: يوصَل[7]، وهي التَّقدُّم إلى الآخر بما يعمل به مقترنًا بوعظٍ[8]، ويقال: أوصاه ووصّاه،

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عون).
(2) الرّاغب، المفردات: (عون).
(3) الجوهريُّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: (عون).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عون).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/ 88.
(6) الجوهريُّ، الصّحاح: (وصي).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وصي).
(8) الرّاغب، المفردات: (وصي).

أي: عَهِدَ إليه[1]، وتواصَى القومُ، أي: وصَّى بعضُهم بعضًا[2]، ويدلُّ ما سبقَ على أنَّ التَّواصي اتِّصالٌ بين الأُمَّة بقوَّةِ الكلام وإيصالِه.

وأوثِر لفظُ (التَّواصي) دون (التَّعاوُن) في قول الله ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾؛ لأنَّ في التَّعاونِ إعانةً بقوَّة العمل، وقد تحقَّقَ هذا في قول الله ﷻ: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ولا يَقبَلُ الموصَى مِمَّن أوصاه؛ إذا كان الموصي لا يَعملُ بما يوصي به، فلمّا تحقَّقَ ما في التَّعاوُن؛ جاء لفظُ (التَّواصي) الدالُّ على التَّقوية بقوَّة الكلام.

(1) الفيروزابادي، القاموس المحيط، وبصائر ذوي التمييز: (وصي).
(2) الجوهريُّ، الصِّحاح، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: (وصي).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والستون،
من سورة القَدْرِ إلى سورة النَّاس
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والستون، من سورة القَدْرِ إلى سورة النَّاس
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 68 ، 828 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-655-42-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 68 : المجلد الثامن والستون، من سورة القَدْرِ إلى سورة النَّاس.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-655-42-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7916426 بتاريخ 2026/01/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"